الفصل الثانى

الشرق العربى والتمهيد لإسرائيل

- **الشرق لا يذوب فى الطبيعة العنفوانية للغرب**
- **حلمان لا يتحققان: دوام الاستعمار ووحدة العرب السياسية**
- **قلب العرب ظهر المجن للترك**
- **أمراء دون سلطان وتمهيد لإسرائيل**

- رأينا كيف أن الحضارة الغربية رغم الطبيعة العنفوانية التى ظهرت بها على البيئة المحاذرة أو المترددة الدفاعية الغالبة على أمم الشرق- **لم يمكن لها إذابة الشرق العربى** الذى وقف لها أو معها أو بها فى بعض الحالات مشرئبا لتجديد عزه القديم أو لتحقيق استقلاله والتصرف وَفق عقيدته ومثله الخاصة؛ وإن تكن متفقة مع مثل الغرب الإسانية العامة فى كثير من الأمور؛ وإن كنا قد اشترطنا تحققه بمثلثنا الشكلى العلائقى للسلطات الثلاث فى الدولة لتكون ديموقراطية أو شورية مؤسساتية حديثثة بحق[1] .

ولقد دلنا الفصل الأول على الأقل من هذا الكتاب على الطابع العلمانى للقوميات الغربية ؛ بينما دلنا بحثنا فى التجربة القومية المصرية فى إطار لحركة الترجمة الحديثة فى بحث آخر لنا : على قيام الشعور الوطنى منذ الطهطاوى على حديث الرسول والمختار من الشعر العربى . ولقد عرفنا أن الاتصال بالغرب كان منبها كما كان الاقتباس عن طريقه والترجمة عنه كان نوعا من الدفاع ضده وضربا من الجهاد ضد التغريب [2]؛ غير مبتوت الصلة بحركات الجهاد التأصيلية أو الإصلاحية المتعددة أو حتى الحَرفية الإسلامية كما تمثلت فى الحركة الوهابية .[3]

---

[1] - ربطا بالصفحتين ١٠٦، ٢٧ لهذه الطبعة / ١١٢ ، ٢٣ ، لطبعة مسودة التصحيح ٢٠٠٦م

[2] مظهرا الصراع والوفاق بين الحضارتين متضحان فى سياقات البحث ؛ أما إسلامية المواطنة ورفضها التغريب فى كتابنا فى الترجمة ، ط قصور الثقافة ص ١٣، ١٤، ٣٨ والخاتمة ص ١٣٤، ١٣٥

[3] ابن تيمية (ت ٧٢٩هـ)
- المغيلى (١٣٠٥م)/ (١٣٢٨م)
- ابن عبد الوهاب (١٧٩١م)
- ابن فوديو (١٨١٧م)

بيد أن ما يفرق بين الأمة العربية والشعوب الإسلامية بإزائها عن سائر الأمم والشعوب الشرقية قد تمثل فى عامل ثقافى حاسم لم يمكن قهره أو تطويعه إلا فى أطراف أقطار الدائرة الإسلامية دون مركزها ومداراتها الداخلية فى العالم العربى خاصة. ذلك العامل هو اللغة القومية. وقد كان لهذه اللغة فضل التوحيد الأول لهذه الشعوب وفضل التوصيل والاستيعاب للمضامين والعطاءات الثقافية السماوية والإنسانية العديدة فى العصور الوسطى كما تبين، كما أن فضلها فى حفظ الكينونة العربية والإسلامية فى صميم عصور الانحطاط حية مريدة : فضل يثبته البحث وتجلوه المقارنة.

ففى "دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة" لعدد من باحثينا : " أعطى الله اللسان العربى خلودا لم يكتب مثله للغة من لغات الأمم... وما فقدت لغ أمة إلا ضاعت ياتها وذهبت آثارها ؛ فاللغة الهيلينية بادت وقامت اليونانية الحديثة بعدها بزوال اسبرطة وأثينا القديمتين... واللغة اللاتينية ... اليوم ... حبيسة الكنائس الرومية والمخطوطات القديمة؛ إلا العربية فإنها ظلت –بحراسة القرآن- باقية بروحها الحية المتأبدة" ؛ كما غذاها الحديث النبوى الشريف وحفظتها جهود العلماء المسلمين المتنوعة المتعمقة الرصينة الغزيرة والجادة: مفردات ومعاجم وأشعارا وآدابا عامة وشرعا ومناهج مذكورة. [1] وصدد المعاجم خاصة ذكر الباحثون ما يفيد أنها نهضت حيث يظن أنها وإن نشأت رائدة على غير مثال سابق تقريبا إنها قويت وازدهرت فى ذات وقت الضعف . قالوا: "إن اهتداء الخليل بن أحمد إلى ترتيب المعاجم أمر يعد فى تاريخ اللغات الإنسانية سبقا يعترف به الغربيون للعرب... حتى إذا كانت عصور الانحطاط السياسى للعرب غير مواتية فى الحكم والظهور قام التأليف والتصنيف فى ضوء العلم وأناة المعرفة بنسج ما تتطلبه الحياة العقلية... فأعطانا منحة غالية

- رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٧٣م)
- الأفغانى (١٨٩٧م)
- أحمد خان (١٨٩٨م)
- محمد عبده (١٩٠٥)

[1] دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة ، كتبها:الكاترة: محمد بديع شريف، زكى المحاسنى، أحمد عزت عبد الكريم؛ خطة وراجعة: د. محمد شفيق غربال؛ ط الأنجلو المصرية ، لجامعة الدول العربية، ص ١٥٧

فى آثار مجمعية جامعة تعد... مفخرة العصور وقد وهبت العربية مجدا لا يبلى." [1]

- فإذا ما تركنا تفصيل ذلك إلى المراجع الأخص به وتقدمنا لدرس مظهر هذا الصمود الثقافى الحضارى فى الميدان العملى السياسى فإنه يمكن أن نقف على ملاحظتين متناقضتين ولكنهما تهديان إلى وفاق ما بينهما بما سبق فى هذا البحث بيانه من شأن البحث فى الظاهرة التاريخية.

وقد ضمنا مواضع من أبحاثنا (تقييم العلامة روزتال لمناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى) ، كما أوردنا موجز المنهج الإسلامى الجامع وتفصيلا لعدد من مناهج البحث العلمى عند ابن الهيثم وغيره ونقد . بروكلمان للأمم والشعوب الإسلامية ، وراعنا من الرجلين جِدهما فى طريق الموضوعية والأمانة فى البحث والتناول؛ إن لم يك ذلك يعنى التأييد المطلق لكل ما جاءا به.

ونقف فى تأريخ بروكلمان لمصر خاصة، بعدما أورده من تأريخه للخلافة العثمانية وغيرها على الملاحظتين اللتين ألمحنا إليهما منذ قليل: الأولى أنه اعتبر الاحتلال البريطانى لمصر(رغم ما أورده هو نفسه من مظاهر سوء هذا الاحتلال الذى أوجب المقاومة الوطنية له) عاملا هاما فى توصيل مصر إلى بغيتها بناء على يأسه من إمكان الإصلاح فى ظل طبقة أبناء محمد على الأرستقراطية.

وهى مقولة استعمارية لم يكن بد لمخلصى رجال الوطنية من أمثال عرابى نفسه من أن يصانع بها الإنجليز وهو فى شيخوخته العالية قبل إعادته من منفاه. وقد عدَّت هدى شعراوى ذلك ظلما لمصر وللحقيقة والتاريخ. وأواخر القسم الثانى من مذكراتها تثبت بأن السخرة والكرباج قد أبطلا فى عهد وزارة رياض باشا الأولى ١٨٨٠م، قبل الاحتلال؛ وبأن نظام المحاكم الحالى قد تقرر بداءة ذى بدء فى عهد وزارة شريف باشا الثانية بمقتضى المرسوم الصادر فى ١٧ سبتمبر قبل الاحتلال

[1] دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة ... ص١٥٨

أيضا.[1]

وقد رأى العقاد فيما كان الشعب يلزم به حكامه الجائرين(ولاسيما فى العهد المملوكى والتركى) من حجج شرعية يوقعها الحكام على أيدى علماء الأزهر- وهم مفزع الأمة فى الملمات دائما- : رأى فى بعض ذلك ما لا يقل فى شأنه عما تخبر به علوم الغرب وكتبه السياسية من مبادئ حقوق الشعب أو الدستور الأكبر"الماجنا كارتا" وما إلى ذلك . وهى أمور - إن عُدَّت فى الغرب دساتير جديدة- لم تعْدُ عند الشرقيين كونها تذكيرا بكتاب الله وسنة رسوله. عد العقاد ذلك الوعى السياسى والتأبى الحضارى من "قرار" المواطنة الأصيلة فى "القرية" المصرية على مر العصور؛ ومن ثم يثبت أن الاستعمار والانجليز بصفة خاصة كانوا عِقابا(عقبات) فى طريق التقدم الإسلامى ولم يكونوا سببا معدودا له بحال.[2]
لكن بروكلمان ما يكاد يخرج من بحثه فى مصر إلى استقلالها المقيد تحت معاهدة ٣٦ حتى يرى مصر موشكة أن تقود العالم العربى فى نهضة أدبية وثقافية تجنبه التبعية للحضارة الغربية.

وبطبيعة الحال فالحكم بـ (لو) البروكلمانية هاهنا يناقض الوقائع الجهادية والوطنية التى شهدتها مصر تحت قيادة علمائها وعسكرييها وسياسييها الذين مثلنا لهم بالسيد عمر مكرم وعرابى وسعد زغلول؛ ويعزز رأينا المجرد عن هذا البحث فى مجمله : وهو أن عوامل الضغط الشرقى

---

[1] هدى شعراوى/ أواخر القسم الثانى من مذكراتها
[2] عباس محمود العقاد/ محمد عبده ، ط وزارة الثقافة ص ٢٦، ٢٧ (من أواخر مبحث "القرية"
- أو هو تحت عنوان/ عبقرى الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده، ط بيروت ص ٢١ ، المبحث نفسه.
+ مباحث كتابنا هذا ومنها سبق المسلمين إلى توكيد حقوق الإنسان ، وفضل العرب بينهم بما وعوه من قيمة "السؤدد" فى نبوغ بعض مواليهم وأبنائهم من نسائهم واحتلالهم المناصب. وما توارد من عنا من تلخيصات عن المغيلى ودان فوديو فى الحكم والدعوة والجهاد والتشريع وما إلى ذلك فى مقابلة أساليب التهمج والهجومانية والاستعمارية وما إلى ذلك.
- وينظر صدد القيمة السياسية لكتابات المسلمين فى الحكم وإدارة أيضا :
- كتاب محمد خلف الله أحمد/ بحوث ودراسات فى العروبة، ط قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية، معهد البحوث والدراسات العربية لجامعة الدول العربية ١٩٧٠م، القسم ٢. و القسم ٣/ ثيقتان من الأدب الإسلامى السياسى فى وظيفة الراعى ومسئولياته.
- ولدى ابن قتيبة فى أدب الكاتب : التوجيه اللغوى والثقافى فيه ص ٢٥- ٤٤ و ص ٤٥- ٨٤

والغربى كانت سبب نمو نزعة الاستبداد والإجهاد السياسى والاجتماعى فى الشرق. ومعنى هذا أن الأوْلى القول بأنه لو ترك الغرب أمم الشرق وشأنها مع مصلحيها لواكبت الركب الغربى ولوصلت معه إلى أفق أعز وأمنع وأسلم مما هى عليه الآن ولجنبها هذه الخسائر المحصاة فى الأرواح والثروات؛ ولاسيما أن رصيد أمم الشرق هذه من القيم ، ومنه قيمة السؤدد التى وقفنا عليها فى تسييد العرب للموالى العلماء وتأميرهم أبطال الموالى عليهم – هذا وكذلك الفقه الشورى النظرى الذى وقفنا عليه عندهم يصنع لأمم الشرق رصيدا ضخما ، لم تمثل الديموقراطية وحقوق الإنسان المستزرعة فيها حديثا إلا تَكرارا له واجتزاءا كما بينا بالبحث، ودون نُكران فضل الإضافات الغربية والعالمية فى جانب الآليات والضمانات الإجرائية خاصة ..

ومهما يكن فإن التناقض فى ملاحظتى بروكلمان السابقتين يحوجنا إلى مزيد من التفصيل فى طبيعة القومية فى الشرق العربى والإسلامى. ولا حاجة بنا إلى تَكرار ما سبق تعليله من من عوامل تعزيز النزعة الفردية فى الشرق وتقييدها بظروفها فى العصور الوسطى وعصر الاستعمار . وكذلك فلن نَكرر بيان وجهى الكمال والقصور فى الشورى الإسلامية ؛ فقد وجدنا المبدأ والنظرية صالحين نظريا فى الإسلام يعوزهما أسلوب التطبيق الذى يمكن تصنيعه أو اقتباسه من الغرب أو غيره. ونقصر الحديث هنا بعد ما صدرنا به من قول فى اللغة العربية كعامل ثقافى حاسم : على ما يكمل بحثنا فى القومية المحافظة فى الشرق

– بعد اللغة

- بفكرتىْ "الإقليمية" (الوطنية) والوحدة العربية(القومية)
- وببيان مناهج الثورة ومزالقها فى مطلع القرن العشرين
- فضلا عن شروط الحاكم القومى الشرقى ومعنى المواطنة
- القيمة التحررية فى الفقه الإسلامى ونفوذه على الحكام
- القيمة الدستورية للشريعة الإسلامية ودلائل نمو الفكر الإسلامى
- وعدم توقف الوحدة الإسلامية على شكل سياسى او وضع إقليمى أو عِرقى محدد نظرا لقيمها الإنسانية المتسعة
- كما سنتناول بالحديث صورة الفقه الإسلامى إلى محمد عبده وخطة

محمد عبده الإصلاحية الحديثة فى ملاءمتها بين الأصالة والتجديد لإزالة التناقض بينهما فى صميم القومية الشرقية ؛ إذ هى فى طبيعتها فى العالم الإسلامى تباين القومية بالمفهوم الغربى فى أمور جوهرية، كما ألمحنا فى أول الكتاب.

١- ففى الدول الشرقية –وهى التى تقسمتها دول أوروبا الغربية التى تحدثنا عنها – فإن ما درجت عليه شعوبها من تعويل اضطرارى على الحكم الفردى ، وما أشربوه من إجلال حكم الخلفاء الشبيه بالحكم الإمبراكورى لم ينعدم تماما بمجرد حل العرا الباقية لهذه الخلافة وخروجها مهزومة من الحرب العالمية الأولى هزيمة حليفتها ذات الفلسفة المباينة فى ألمانيا..[١]

- ولقد كان موافقا لمنطق الدول القومية الحديثة أن يصدق العرب "الحسينيون" (الحجازيون والمصريون والسوريون) أنهم يمكن أن يجدوا العون فى بناء دولة خلافة عربية بمساعدة الذين ثاروا بالفكرة القومية على الحكم الإمبراطورى فى بلادهم وحاربوها فى غيرها ولكنه كان مناقضا لأطماعهم[٢] ومواقفهم من الدين جملة ولاسيما الإسلام.[٣]

-٣- وكذلك فإن الأقاليم التى خضعت للخلافة العثمانية رغم أن لها تجارب سابقة على التجارب الأوروبية فى الحكم الإقليمى الدستورى الذى تقيد بالشرع غالبا أو ظاهرا لم تظفر بحكم نفسها بحكومات وطنية مستقلة كما وعدتها الدول القومية الغربية نفسها لما سبق أن بيناه من مداخلة فكرة التوسع اليونانية الرومانية لفكرة الاستقلال فى صميم الفلسفة الفكرية السياسية للدول القومية الغربية ولما سيتضح من رواسب الصراع الدينى فى القرون الوسطى والانحدار الذى استدللنا عليه فى القيم السياسية والأدبية الغربية فى ذلك الوقت فضلا عن دوافع الخوف التى

---

[١] عبد الحكيم العبد/ تطور النقد والتفكير الأدبى فى مصر فى الربع الثانى من القرن العشرين، دكتوراه بآداب الإسكندرية ١٩٨٥م (مبحث ١، صدر الفصل الأول من الباب الأول)

[٢] عبد الحكيم العبد/ تطور النقد والتفكير الأدبى فى مصر فى الربع الثانى من القرن العشرين، نفسه

[٣] عبد الحكيم العبد/ تطور النقد والتفكير الأدبى فى مصر فى الربع الثانى من القرن العشرين، نفسه، مبحث ٢ – د- ٧، وكذا ٢-ج-٢

داخلت القوميين الأوروبيين من قومية العرب، كما بينا.

- لكن **أحلام التوسع الغربية لم تدم كما أن أحلام التوحد العربية لم تر النور** وآلت المسألة إلى حكم استعمارى تقسيمى لبلاد العرب [١] ثم عالت إلى محض نظم حكم محلية متباينة الأشكال ولكنها متشابهة الأهداف متحدة اللسان ؛ وهذا هو مظهر الاستقلال وجوهره الذى لم يفارق هذه الدول مجتمعة أو متفرقة منذ انحسر عنها ظل الحكم الرومانى لآخر مرة . فبذلك "الاستقلال الجوهرى" استعصت على الاستعمار العسكرى(الاحتلال) وعلى الاستعمار الثقافى(التغريب) وإن بقى استقلالها السياسى والاقتصادى مداورا لسياسات الدول الغربية أو الشرقية الكبرى والغنية شأنها فى ذلك شأن دول العالم الثالث. [٢]
– بيد أن المجموعة العربية قد تميزت بينها بتجانس يُعتَرف لها به نظريا ويخشَى منه عمليا ؛ ولذلك تطورت فكرة الوحدة العربية من دعوة شديدة لتأسيس مملكة عربية متحدة إلى فكرة لتأسيس نوع من الاتحاد ، أسفرت عن تحالف أخوى عام فى ظل جامعة الدول العربية ؛ وإن ظل الشعور سائدا بإمكان تحقيق حلم الدولة العربية الواحدة. حلم يبدو أنه ينبغى أن يستوحى فكرة الدوائر الناصرية معدلة بإضافة الدائرة السامية بقاطعيها السلافى والعبرى إلى دوائر عبد الناصر –أو قل دوائر محمد حسنين هيكل- المصرية والعربية والإفريقية والإسلامية والإنسانية.

- والذى أكره العرب على قلب ظهر المِجَنّ للترك أنه قد غلب عليهم الاقتناع باستحالة الإصلاح فى ظل الخلافة العثمانية ؛ فحالفوا الحضارة الغربية فى الغالب ، وقد فهموا أن الدين فى ذاته غير مستهدَف. لكن الرأى الأسد فى رأينا قد كان رأى "جماعة من ضباط العرب فى الجيش

---

[١] عبد الحكيم العبد/ تطور النقد والتفكير الأدبى فى مصر فى الربع الثانى من القرن العشرين، نفسه، ٢-د- آخر ١١

[٢] "المداورة": مصطلح خلدونى: المجاراة مع التأبى. ذلك أن للدول المذكورة قوة تأثير سياسى واقتصادى تعجز الدول الصغيرة عن التحرر منها كما تظل عالة عليها فى بعض الأحيان.
- والمصطلح نفسه فى رواية محمد بللو بن الشيخ عثمان بن فوديو مصلح بلاد التكرور المجاهد؛ وقد رواه محمد عن القرطبى بعبارة " المداورة بذل الدنيا لإصلاح الدين أو الدنيا أو كليهما معا ؛ وهى مباحة وربما استحبت.. والمداهنة .. ترك الدين لإصلاح الدنيا" \ إنفاق الميسورفى بلاد التكرور، ط القاهرة ١٩٨١م، نشر الحاج طن أغى طابيرو ، صوكتو، نيجيريا. ص ١٢٠

التركى" أصروا على الاستقلال عن الجانبين ؛ وإن ظلوا حتى نهاية الحرب فى صف الأتراك.

- أما الشريف حسين نفسه-رغم ورعه- فإنه لم يسلم من الخلط؛ بل لم يدع له الأتراك إلا الخلط؛ فإن جيل الضباط الشبان من جماعة "تركيا الفتاة" التى تسلمت زمام الحكم بعد إسقاطهم الخلافة المريضة قد عُدُّوا فى رأى الشريف حسين "مسلمين اسما" : أهل سوء لا شرف لهم ولا عهد . وما طالبوا به من إعلان الحرب المقدسة لم يكن جائزا فى رأى هذا الشيخ الفقيه لأن الحرب المقدسة لا تكون إلا فى حالة الدفاع عن النفس. وكان واضحا أن طلبهم الجهادى هذا نفسه لم يكن عن إيمان منهم وإنما كان بإيعاز من حلفائهم الألمان من أجل كسب الحرب ضد الحلفاء لا غير. [١]

ولما تورع الرجل عن إقحام الدين فيما طلبوه عرَّضوا بلاده جزئيا للمجاعة فتوسل الشريف حسين إلى الحلفاء ألا يسمحوا بتعريض بلاده للمجاعة دون ذنب فكان أن زودوه ببعض طعام مصرى، ولما لم ترض سياسته تلك الأتراك أعملوا المذابح فى "المدينة" ، وبذلك ألجئوه إلى الارتماء فى أحضان الغرب.

- وبعد الحرب صرح الحلفاء بما اتهموه به أثناءها من تهمة الجنون لمراودة فكرة الخلافة لعقله ، ثم عمل الإنجليز بأسلوبهم الخاص على الإجهاز على بقية المطامح السياسية لحليفهم حسن الظن.

خول الإنجليز –عن طريق وسيطهم عند العرب "لورنس" سنة ١٩٢١م الشريف حسين حكم الحجاز بموجب إعلان أرسله هذا إليه ، ولكن الشريف أعلن نفسه ملكا على جميع الجزيرة حتى أخرجه ابن سعود حاكم نجد منها؛ فما كان من الإنجليز إلا أن أقروا ابن سعود على ما هو عليه وفضلوه على غيره لكونهم قد ارتضوا ما وصفوه به من أنه "فى مملكته

---

[١] Graves, Robert, Laurance of Arabia,,1928,p. 16,

حاكم بغير نظام فى الجزيرة العربية" [1] وما دروا –فى الواقع- أنهم قد نصروا الفكرة الوهابية الإصلاحية الحَرفية فى الإسلام وثبتوها على أغنى احتياطى للمال والطاقة والقداسة فى العالم.

- وقد تركوا فيصل للفرنسيين فى سوريا فأزالوه عن عرشها بعد سنة واحدة ، وإن ظلوا عاجزين عن إزالة آثار حركة التعريب والتأصيل بها إلى أن زالوا هم أيضا . ومُلْك فيصل هو ذلك الملْك الذى بذل فى سبيله ما بذل من دماء القبائل العربية وغيرها . وقد قادهم وإخوته طليعة للحلفاء فى القضاء على القوات التركية والنمساوية المتحالفة معها بما فى ذلك من تحطيم سكة حديد الحجاز والكبارى والمرافق العديدة ، إلى غير ذلك من أعمال الحرب الضارية ؛ ثم قبلوا تنصيبه على العراق فى ظل سلطتهم الكاملة ، شأن من نصبوه من أبناء هذه القبائل المنهكة ومنهم عبد الله أخو فيصل فيما سمى بإمارة شرق الصحراء. وقد شملت جزءا من من فلسطين بالتوازى مع خطة لتهجير يهود العالم إلى بقية فلسطين وإقامة إسرائيل فيها [2] سِفاحا لا نِكاحا؛ وذلك سنة ١٩٤٧م ؛ ولو أن هؤلاء ساميون يفترض أنهم موحدون أيضا كما ألمحنا فى غير موضع .

---

[1] Graves, Robert, Laurance of Arabia,,1928,p 286

[2] Graves, Robert, Laurance of Arabia,,1928,p288

obeikandl.com

obeikandl.com